شاعرية أبي العتاهية فى الغزل – قصته مع عُتبة - نموذجا

د . أبوبكر العربي المجدوب - كلية التربية العجيلات – جامعة الزاوية

المقدمة :

لقد كانت نفس أبي العتاهية ميالة إلى قول الشعر ، فقد جعلته يترك مهنة الخزف ويزاول الشعر ، وانطبع عليه حتى صار له فيه باع طويل ، وله فى الغزل من الشعر الممتهن لما فى النفوس من شهوات عارمة ونزوات طارئة ، كما له فى الغزل ما كان يصدر عن عاطفة صادقة وحب عميق وصبابة متأججة ، وقد ملك قلبه وسلب لبه وطفا على جميع مشاعره ، وسلط كل ما فيه من عاطفة وإحساس على صاحبته التي لا يرى فى الحياة أجمل منها وإن لم تكن أجمل النساء ، فقد عاش أبو العتاهية شطراً من حياته لاهيا عابثاً يحضر مجالس الشراب والغناء ، وينشد الشعر الذي تجود به قريحته الفياضة ؛ حتى رق شعره ولان ، ونحن فى هذا البحث المتواضع سنتناول شاعرية أبي العتاهية فى غزله من خلال قصته مع عُتبة حسب التقسيمات التالية :

المقدمة ، قصته مع عُتبه ، القصيدة المحللة ، نتائج البحث .

أولاً – قصته مع عتبة : (1)

لقد مرت الأيام بأبي العتاهية باسمة ، غير أن سحابة لا تلبث أن تنعقد فى سمائها فقد تعلقَّ بجارية من جواري زوجة المهدي رائطة بنت السفاح ، وهي عُتبة ، وقد كانت تزدريه كما ازدرته سُعدى من قبل ، ومضى لا يكف عن غزله بها ، فعرفت مولاتها خبره وإثارتها عليه فحدَّثت الخليفة المهدي بشأنه ، فغضب لتعرضه لحرمة جواري قصره ، وأمر بضربه مئة صوت وسجنه ، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميري ، وهو خال المهدي ، أن شفع لهُ عنده أي الخليفة ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته ويقول أبو العتاهية فى شعره :

كأنها من حسنها دُرَّةٌ أخرجها اليم إلى الساحل
كأن في فيها وفي طرْفها سواحراً أقبلنَ من بابل
لم يُبقِ مني حُبُّها ما خلا حُشَاشة في بدن ناحل
يا مَنْ رأى قلبي قتيلا بكى من شِدّةِ الوجَد على القاتل (2)

نجد أن الشاعر يتعاطف مع من وصفها وكثيراً ما ينقل إلى القارئ أو السامع أحاسيسه بجزئياتها ووقائعها مما يثير مشاركة الوجدان ، فهو بما يفضي به من أوصاف يعبر عن أكثر ما يجده في نفسه .

ويقول الرواة أنه لم يكن يحبها حبًّا صادقاً ، إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية ، بذكرها وأنه امتحن في حبها ، وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف

هذا الحب تكلفا (3) وأنا لا أقول بهذا الري ؛ لأنه إذا لم يكن يُحبها لما ذكرها وتغنى باسمها طويلاً ، مثلما قال في قصيدته :

يـــا عتُبَ سيدتـــي ! أمَالكِ ديـــنُ حتى متى قلبي لدَيكِ رَهِينُ ؟
وأنا الذلول لكـل مـا حمّلتـِي ؛ وأنا الشّقي البائِسُ المسكِيـــنُ
وأنا الغَـــذاةَ لكلّ بـاكٍ مُسعِـدٌ ولكلّ صَب صاحبٌ وخديـــنُ
لا بأس ، إنّ لذاكّ عنـــدي راحة للصّبَّ أن يَلقَى الحَزينَ حَزينُ
يا عُتْبَ ! أينَ أفرّ منكِ ، أميرَتـي وعليّ حِصْنٌ منْ هَواكِ حَصِينُ(4)

حيث توحدت نفسه مع نفسها توحداً ثابتاً ، وهذا الاندماج الموحد يظهر بصورة واضحة عندما ربط بين حزنه وحزنها ، فأراد أن تستميل هذه الأبيات قلوبنا ، ونشاركه أحزانه ؛ لما لها من إثارة للوجدان .

وقال في عُتبة أيضاً :

عتُبَ ما الخَيـــالِ خبريني ومالي
لا أراه أتانـــــي زائراً مُذْ ليالي
لو رآني عـدوي رق لي أو رثاني
أو يراني عدوي لان من سوء حالي (5)

فهذه الأبيات تمنحنا نفحة جديدة للغزل حيث فيها المشاركة في العواطف التي يشعر بها المبدع والمتلقي ، فلقد جاءت مؤثرة ؛ لأنها وليدة تجربة إنسانية حقيقية ، وزاد من روعة هذه الصورة خيال الشاعر الخصب .

وله في عُتبة غزل كثير ، وهو فيه رقيق رقة بالغة ، ويقال أن أكبر الظن في رقته جاءته من شدة حبه للنساء ، وكأنما سرت فيه مشاعرهن تقترن عنده بالتذلل والتضرع ، ودائما يشكو مسكنته ، وإن صاحبته لا تنيله كثيراً ولا قليلاً ، وإنها استرقتهُ ولا تردُ عليهِ حريته ، وإنها أضنتهُ واسْقمته ، وهي تزهد فيه وهو المحب الوامتي الذي يرسل الدموع مدْراراً على من ظلمثه ، وإنه ليستجير ولا من مجير، ويتصبر ولا له من مصبّر إلا النواح الطويل (6) ومما يستحسن من شعره قوله :

ما أنـــا إلا لمـــن بغانـــي أرى خليلي كما يراني
من ذا الذي يرتجي الأقاصي إن لم تنل خيره الأداني
أصبحـــت عمـن بها غنيا بخالقي من جميع شاني
لا ترتجي الخير عند من لا يصلح إلا على الهوان (7)

وقال أيضاً :

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي (8)

وقال أيضا :

ألا ما لسيدتي مالها ؟ أدلت ، فأجمل إدلالها
وإلاّ ففيمَ تجنّت ، وما جنيت سقى الله أطلالها (9)

فإذا بها ذات جمال ودلال وبهاء .

وقال يتغزل بعتبة وقد سماها عتابة :

كأنّ عتابة من حسنها دمية قد فتنت قسها
يارب لو انسيتنيها بما في جنة الفردوس لم أنسها (10)

فجعلها تحتو عليه بعطفها لترويه منه ومن حنانها ، فهو يتنعم بعاطفة محبوبته ، تلك الصورة التي ترمي في النفس الفرح والمتعة ، ونسيان غيرها دون نسيانها ، فهو يعيش جواً يعبق بالسعادة والارتياح .

وعندما صدته عتبة قال يناجيها :

الله بيني وبيـــن مولائـــي أبدت لي الصد والملالات
لا تغفر الذنب إن أسأت ولا تقبل عُذْري ولا مواتاتـي
منحتها مهجتي وخالصتـي فكان هجرانها مكافاتـــي
أقلقني حبــها وصيرنـــي أحدوثه في جميع جاراتي (11)

إن من أجمل ما قاله فيها ((منحتها مهجتي)) حيث يهيم بذلك طرفاً ومعطشاً ، ويكّلف بها حباً ، فنرى أن الحزن قد استحوذ على نفسه .

حيت يبرز الأثر النفسي الذي تحدثه هذه الأبيات في وجدانه واضحاً .

واشتهر أبو العتاهية بمحبوبته عتبة جارية زوجة المهدي وأكتر نسيبه بها فمن ذلك قوله :

أعلمت عتبــة أننـــي منها ، على شرف ، مطل
وشكوت ما ألقى إليها والمدامـــــع تستهل
حتـى إذا برمـــت بنا أشكو كما يشكو الأقل
قالت : فأي الناس يعلم ما تقول ؟ فقلت : كل (12)

وكتب أبو العتاهية للرشيد وهو في الحبس الأبيات الآتية :

وكلفتني ما حلت بيني وبينه وقلت سأبغي ما تريد وما تهوى
فلو كان لي قلبان كلفت واحداً تواك ، وكلفت الخلي لما يهوى (13)

لقد جعل الشاعر في صوره اتصالاً بين المواصفات وبين نفسه وعاطفته ، وتمازجاً بين كثير منها وبين رؤيته وخياله .

ومما قاله في عُتبة أيضاً :

أحمد قال لي ولم يدر ما بـــي أتحب ، الغداة ، عُتبة حقا ؟
فتنفست ثم قلت : نعم ! حبـــات جرى في العروق عرقاً ، فعرقا
لو تجسين ، يا عُتبة ، قلبـي ، لوجدت الفـــؤاد قــرحاً تفقـــا

قد لعمري ، مل الطبيب ومل الأهل مني ، مما أقاسي وألقـي
ليتني مت ، فاسترحت ، فإنـي أبداً ، ما حييت ، منها ملقـى (14)

فهي صورة مشتتة يشوبها الغموض ، فكيفما تقلبها لم يبد لك منها وضوح ، فإن بعض الألفاظ تجعل الصورة مدلهمّة ، إلاّ أن بذكرها تطيب الساعات ، وتحلو رقائق العيش .

ومن غزله في عُتبة قوله متوجعاً يطلب الرحمة منها :

أما رحمتني يوم ولت ، فأسرعت وقد تركتني واقفـاً أتلفت
أقلب طرفي كي أراها ، فلا أرى ، وأحلب عيني درها ، وأصوت (15)

نرى أن الشاعر قد برع وأبدع في تعبيراته من خلال توظيفه عبارة ((وأحلب عيني درها)) وما يفيده ذلك من إيماءات فنية تبرز قدراته التعبيرية .

وقال يتغزل :

ولقد حبوت إليك ، حتى صار من فرط التصابي
يجد الجليس ، إذا دنا ، ريح التصابي في ثيابي (16)

وينشد لنا أبو العتاهية :

قل لمن ضن بوده ، وكوى القلب بصده
ما ابتلى الله فؤادي بك إلاّ شؤم جـده
أيها السارق عقلي ، لا تضنن بـردّه
ما أرى حبك إلاّ بالغاً بي فوق حده (17)

فالمتتبع لهذه الأبيات يلحظ العناصر التي تكونت منها بما فيها من معان وألفاظ وصور وموسيقى ، حيث رسم لنا الشاعر صورة رائعة موحية مؤثرة تجسد مدى المعاناة التي يشعر بها نتيجة تجربته ، فقد اعتمد في صياغتها على قدراته الفنية فجاءت صوره متكاملة العناصر ، حيث نلمس اللغة السهلة والواضحة ، والألفاظ الحزينة والمعاني الشاكية .

ومن غزله الذي قاله ويستملح ويستطرف قوله في شاطرةٍ :

مرت اليوم شاطرةٌ ، بضّة الجسم ساحره
إن دنيا هـي التـي مرت اليوم سافره
سرقوا نصف اسمها فهي دنيا وآخره (18)

ويقول أبو العتاهية شعراً جميلاً نقول منه :

أبيت مسهدا ، قلقا وسادي ، أروّح بالدمـوع عن الفؤاد
فراقك كان آخر عهد نومي ، وأوّل عهـد عيني بالسهاد
فلم أر مثل ما سلبته نفسي ، وما رجعت به من سوء زادي . (19)

ويتغزل أبو العتاهية ، وهذا الغزل عذري في باقي قصيدته يقول :

ومخصّرات زرننا بعد الهـــدوّ مـــن الخدور
رياً رواد فهـن يل بسن الخواتم فـي الخصور
غُرَّ الوجوه محجَّبا ت قاصرات الطرف حور
متنعمات في النعيم مضخمات بالعبيـــــــر
يرفلن في حلل المحـــا سن والمجاسد والحرير
ما إن يرين الشمس إلا الفرط من خلل الستور (20)

هذه الأبيات تظهر لنا جمال الصورة في شعره ، وهي تمثل لوناً من ألوان الغزل الرقيق الذي بعثته الحضارة الجديدة ، وهي تعكس عاطفته وشاعريته .

ويقول في عتبة أيضا :

بسطت كفّي نحوكم سائلا ماذا تردّون على السّائل ؟
إن لم تُنيلوه فقولوا لـــــه قولاً جميلاً بدل النائل
أوكنتم ، العام ، على عسرةٍ منـــه فمنوه إلى القابل (21)

إنها توحي بمأساة يعانيها ، فالمأساة ترتبط بشيء يؤلمه .

ثانياً – القصيدة المحللة :

قتيل يبكي على قاتله

هذه القصيدة قالها شاعرنا في عُتبة

من بحر السريع

يا إخوتي ! إن الهوى قاتلي ، فبشّروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا في اتباع الهوى ، فإنني فـــــي شغل شاغل
عيني على عُتبة منهلـــــة ، بدمعهـا المنسكب السائل
كأنها ، من حسنهـــا ، درة أخرجها اليم إلى الساحل
كأن ، في فيها وفي طرفها ، سواحراً أقبلـن مـن بابل
لم يبق مني حبها ، ما خلا حشاشة في كبد ناحـــــل
يا من رأى قلبي قتيل بكى ، من شدّة الوجد على القاتل
بسطت كفّي نحوكم سائلا ، ماذا تردون على السائل ؟
إن لم تنيلوه ، فقولوا لـــــه قـولا جميلا بـدل النائـل
أو كنتم العام ، على عسرةٍ منه ، فمنوه إلـى القابـل (22)

تحليل القصيدة :

ففي هذه القصيدة المكونة من عشرة أبيات ، نجد الشاعر يخاطب فيها ، ويناجي محبوبتُه عُتبة فيقول في البيت الأول :

يا إخوتي ! إن الهوى قاتلي فبشّروا الأكفان من عاجل

فهو في هذا البيت يستغيث ، وأسلوب الاستغاثة في قوله : يا إخوتي : يا إخوتي أغيثوني
فهو حتما الذي سيجني عليه ويقتله ، أما في الشطر الثاني في هذا البيت ، استعمل شاعرنا أسلوب الاستعارة في قوله : فبشروا الأكفان من عاجل ، أما في البيت الثاني :

ولا تلوموا في اتباع الهوى ، فإنني في شغل شاغل

فإن الشاعر يقول : لا تلوموني في اتباع الهوى ؛ لأنه أمر ليس بيدي ، أما في الشطر الثاني فيقول : إنني مشغول عنكم فلا تلوموا عليّ .

عيني على عُتبة منهلة بدمعها المسكب السائل

وقع الشاعر في هذا البيت في تكرار لا طائل من ورائه إلا لمناسبة الوزن في قوله – منهلة – المنسكب – السائل - ، ويسمى هذا (بطلب القافية) فهو يصف عينه تبكي على عتبة بدمع غزير فهو منسكب ومنهل وسائل ، وفي البيت الذي بعده يشبه عتبة بالجوهرة الثمينة في جمالها ، والتي أخرجها الموج إلى شاطئ البحر في قوله :

كأنها ، من حسنها درة ، أخرجها اليم إلى الساحل

ففي هذا البيت تشبيه مجمل بالتفصيل ذكر فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه .

أما في منتصف القصيدة في البيت الخامس قال الشاعر :

كأن ، في فيها وفي طرفها سواحرا أقبلن من بابل

يعتبر هذا البيت تشبيهاً تمثيلياً فشبه عتبة بمحاسنها التي تتمثل في فمها وفي عيونها كأنها سواحر والمفرد منها :ساحرة، وهي مأخوذة من السحر ، وجئن من حدائق بابل المعلقة المشهورة بجمالها ، وأما في البيت الذي يليه قال الشاعر :

لم يبق مني حبها ماخلا حشاشة في كبد ناحل

لم يترك بي حبها أي شيء في أعماق نفسي حتى صار جسمي نحيلاً

يا من رأى قلبي قتيلا بكى من شدة الوجد ، على القاتل

في هذا البيت نداء للتعجب يقول : يا من رأى منكم قلبي بكى ، من شدة الشوق على القاتل

بسطتُ كفّي نحوكم سائلاً ماذا تردّون على السائل

هنا استجداء في حب عُتبة ، فيصور لها نفسه أنها كالمتسول ، والشطر الثاني استفهام للتوبيخ فماذا تحطون لهذا المتسول ؟ . فهذا البيت سؤال ويجيب عنه في البيت الذي يليه في قوله :

إن لم تُنيلوه ، فقولوا له قولاً جميلاً بدل النائل

فيقول هنا : إن لم تعطوه شيئاً ، فقولوا له قولاً جميلاً بدل الصد ، وهذا كنص الآية في قوله تعالى : ((وأما السائل فلا تنهر)) (23)

وقوله في البيت الأخير :

أوكنتم ، العام ، على عسرةٍ منه ، فمنوه إلى القابل

فيقول في هذا البيت ، إذا لا تستطيعون أن تعطوني شيئاً في هذا العام فأنا لست في عجلة من أمري وأنتظر حتى العام القادم .

بهذه القصيدة أكون قد أنهيت بحثي فالحمد لله .

الخاتمة ونتائج البحث :

بعد استعراضنا لنماذج من شعر أبي العتاهية في الغزل من خلال قصته مع (عتبة) توصلنا إلى النتائج التالية :

1 - كان أبو العتاهية ميالاً إلى قول الشعر وخاصة ((الغزل)) .

2 - تغزل كثيراً وخاصة في ((عتبة)) .

3 - كان أبو العتاهية غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل اللفظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف .

4 - لقد خرج أبو العتاهية عن النظام العروضي وهذا دليل على التجديد في شعره

5 - كان من المطبوعين حتى كاد أن يكون كل كلامه شعراً .

6 - لقد نوع أبو العتاهية في أسلوبه الشعري مما جعله حسناً .

7 - حرر نفسه من التقيد بالمعاني والألفاظ والأوزان ، فأتى بمعان جديدة .

8 - لقد جانب أبو العتاهية الألفاظ المعقدة والركيكة في جل شعره .

9 - كانت له عاطفة صادقة ولكن ليس في كل أشعاره .

10 - جعل من غزله معجماً لغوياً وفنياً يرجع إليه في صناعته الشعرية .

11 - إن ميدان الغزل هو المنبع الذي تتفجر منه شاعريته وفي أرجائه يطوف خياله .

12 - جاءت معانيه واضحة متسلسلة ومنسجمة مع شاعريته .

الهوامش :

1 - تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول – د . شوقي ضيف ج 3 . ص 239 .
2 - ديوان أبي العتاهية – دار بيروت – للطباعة – لبنان . ص 399 .
3 - تاريخ الأدب العربي – شوقي ضيف – مصدر سابق ج 3 . ص 239 .
4 - الديوان – ص 458 .
5 - الشعر والشعراء – ابن قتيبة ج 2 1983 – دار الثقافة بيروت . ص 675 .
6 - نفسه ج 2 – ص 193 .
7 - الديوان – ص . 433 .
8 - الشعر والشعراء – ابن قتيبة – مصدر سابق – ج 2 . ص 678 .
9 - الديوان – 5 – 375 .
10 - نفسه – ص – 234 .
11 - نفسه – ص – 235 .
12 - نفسه – ص – 385 .
13 - نفسه – ص – 30 .
14 - نفسه – ص 159 .
15 - نفسه – ص – 106 .
16 - نفسه – ص – 69 .
17 - نفسه – ص 477 .
18 - نفسه – ص – 499 .
19 - نفسه – ص 159 .
20 - الأغاني للأصفهاني – ط 1 – 1972 – ج 4 – ص 61 .
21 - الديوان – ص – 386 .
22 - نفسه – ص – 386 .
23 - سورة الضحى – الآية – 10 –